١٣ ــ حقوق الإنسان في الإسلام

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

خلال الأسبوع المنصرم احتفلت الأمم المتحدة واحتفل العالم معها، باليوم العالمي لحقوق الإنسان، وذلك مناسبة مرور أربعين عاماً على إعلان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان).

المسلمون أولى الناس بحقوق الإنسان:

ونحن المسلمين أوّل من يحتفل بحقوق الإنسان ويهتّم بها، فالإسلام ـ قبل أن يعلن الغرب مواثيقه عن حقوق الإنسان، سواء من الأمم المتحدة أم من غيرها من الهيئات والثورات ـ قد قرّر للإنسان حقوقه منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد.

الإسلام يوازن بين الحقوق والواجبات:

لم يكن الناس يعرفون أن لهم حقوقاً قبل الإسلام، كلّ ما يعرفونه: أنّ عليهم واجبات، ولا يدرون أنّ لهم حقوقاً، فجاء الإسلام وقرّر أنّ للإنسان حقوقاً تُرعى، كما أنّ عليه واجبات تُؤدّى، فكلّ واجب يقابله حقّ، كما أنّ كلّ حقّ يقابله واجب.

ولهذا قامت التكاليف في الإسلام على هذين الأمرين: الواجبات والحقوق، وهذا ما يخالف فيه الإسلام فلسفة الغرب الآن.

فالغرب ينادي دائماً بالحقوق ولا يهتمّ كثيراً بالواجبات، حقوق الإنسان..

حقوق الأطفال.. حقوق العمّال.. حقوق المرأة، حقوق حقوق. وكأنّ الإنسان مُطَالِبٌ فقط بما له، وليس مُطَالَباً بما عليه.

إذا أديت الواجبات فقد رعيت الحقوق:

الإنسان في الشريعة الإسلاميّة مخلوق مُكَلَّفٌ مُطَالَبٌ مسؤول، أكثر ممّا هو مُطَالِب سائل، الإنسان في الغرب أبداً يقول: ماذا لي؟ أمّا في الإسلام فإنّه يجب أن يقول: ماذا عليّ؟.

وإنّما تُرعى الحقوق حقاً، يوم تُؤدّى الواجبات، فحقّ كل إنسان هو واجب على غيره: حقّ الولد في الرعاية المادية والمعنوية والتربية الحسنة هو واجب على أبويه، وحقّ الأب في البّر والإكرام والرعاية عند العجز أو الشيخوخة هو واجب على أولاده، وحقّ الفقير في كفايته من العيش هو واجب على الغني، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥].

وحقّ المحكوم في العدل وتكافؤ الفرص واجب على الحاكم.. وهكذا.

هذه الحقوق إنّما تُرعى حينما تُؤدى الواجبات، فهذه فلسفة الإسلام الذي يمزج بين الواجب والحقّ، بل يؤكّد كلّ التأكيد، ويركّز كلّ التركيز على أداء الواجب، فإنّما تضيع الحقوق حينما تضيع الواجبات.

تقرير الحقوق لأهلها دون مطالبة منهم:

جاء الإسلام وقرّر أنّ للنّاس حقوقاً، ولكلّ إنسان حقوقاً. قرّر ذلك دون أن تقوم ثورة تطالب بحقوق الإنسان، دون أن تُسيّر مظاهرة تنادي بحقّ الفقراء في أموال الأغنياء، أو بحقّ الضعفاء على الأقوياء، أو بحق المرأة على الرجل، أو بحقّ المحكوم على الحاكم.

لم تحدث ثورة، ولم تحدث مطالبة، ولكن دون أن يطالب الناس فإنّ ربّ

الناس . . . ملك الناس . . . إلٰه الناس، هو الذي قرّر لهم هذه الحقوق.

قرّرها من أوّل يوم، أوّل آيات نزلت في القرآن عُنيت بالإنسان، ورفعت من شأن الإنسان: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، منذ هذه السطور الأولى في كتاب الله عز وجل ارتفع شأن الإنسان.

الإنسان في الإسلام له شأن أيّ شأن، وهذا أساس من أسس تثبيت حقوق الإنسان.

حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على دعامتين أساسيتين:

١ ـ عقيدة التوحيد:

الدعامة الأولى: هي عقيدة التوحيد، كلمة (لا إلٰه إلاّ الله)، هذه الكلمة إيذان بعالم جديد، بميلاد جديد للإنسان، تحرير للإنسان من العبوديّة، وخصوصاً من عبوديّة البشر للبشر، لم يعد هناك إنسان يستعبد إنساناً، ولم يعد هناك حقّ لإنسان أن يؤلّه إنساناً.

كيف تؤلّه من هو مثلك.. من خُلق من تراب مثلك؟ ويعود إلى التراب مثلك؟ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . .﴾[1] [طه: ٥٥].

كيف تؤلّه إنساناً أنت مثله؟ أو كيف تستعبد إنساناً هو مثلك؟!.

إنما هي الأخوة العامّة، الناس جميعاً إخوة، أبناء أب واحد، وعبيد لرب واحد، وهذا ما أعلنه النبي ﷺ على الملأ، على مرأى ومسمع من الجموع المحتشدة، التي تطهّرت ولبست ملابس إحرامها لله، في تلك الساحة المقدّسة في حجّة الوداع.

---

(١) وتتمّتها: ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

أعلن النبي ﷺ ميثاق حقوق الإنسان الأوّل، حينما نادى في الشهر الحرام والبلد الحرام: أيّها الناس: «. . . فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. . .»[1]: لا يحلّ لأحد أن يعتدي على دم أحد. . على حياة أحد. . على مال أحد. على عرض أحد. «يا أيها الناس، ألا إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لعجميّ على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى. . .»[2] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ . .﴾ [الحجرات: ١٣].

في حجّة الوداع، وأمام هذه الجموع الهائلة، أبلغ النبي بلاغه الأخير للناس، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى: إنّ الرب واحد، والأب واحد، وأنّ الدماء والأعراض والأموال مصونة، لا يجوز أن يُعتدى عليها، وأن الناس سواسية كأسنان المشط.

قُرّرت حقوق الإنسان بناءً على أنّ الناس عبيد لربّ واحد.

عقيدة التوحيد إذن هي الأساس الأوّل لتقرير حقوق الإنسان، لم يعد هناك مجال لفرعون من الفراعنة، يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، ولا لنمروذ من النماريذ يقول: أنا أحيي وأميت، ويقتل رجلاً بغير حق ويقول: قد أمته، ويحكم على رجل بالإعدام ثمّ يعفو عنه ويقول: ها قد أحييته.

لم يعد هناك مجال لفرعون ونمروذ، إنّما المجال الآن للراكعين الساجدين

---

(١) جزء من حديث أبي بكرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه في باب: «تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال». انظر: (صحيح مسلم بشرح النووي: ١١/ ١٧٠) ط. دار الفكر.

(٢) رواه أحمد عن أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، قال عنه الألباني في «غاية المرام»: هذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضرّ كما هو معلوم، ولذلك قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٦٩: إسناده صحيح.

الموحدين، الذين يعلنون في كلّ حين: أشهد أن لا إله إلاّ الله، الألوهيّة لله وحده.

هذه الحقيقة في بداية تحرير للإنسان، من ظلمات القرون وظلم القرون.

كان النبي ﷺ يختم رسائله إلى الملوك والأمراء ـ قيصر والنجاشي والمقوقس، وغيرهم من ملوك النصارى ورؤسائهم ـ بهذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

لم يعد هناك أحد يمكن أن يكون ربّاً لأحد، ولا لأحد أن يكون عبداً لأحد، العبوديّة المدنيّة المعروفة لا تعني الخضوع المطلق، لا، العبوديّة الحقيقيّة إنّما هي لله وحده.

هذا هو التوحيد الذي جاء به الإسلام.

٢ ـ تكريم الإنسان:

ثمّ كانت هناك الدعامة الثانية: وهي تكريم الإنسان.

الإسلام كرّم الإنسان: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠] من حيث هو آدمي، من حيث هو إنسان.

كرّمه بعدّة أشياء:

(أ) استخلفه في الأرض، جعله الله في الأرض خليفة، وهي منزلة رنت إليها الملائكة، وأشرأبّت إليها أعناقهم، وتمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب، فقال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣١]، وَهَيَّأه ليقوم بهذا الدور: الخلافة في الأرض.

(ب) كرّم الله الإنسان بأن صوّره فأحسن صورته: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٦ ـ ٨].

(جـ) ـ ثمّ زاد على ذلك بشيء أكبر وأعظم وأعمق، هو أنّه ميزّ الإنسان بذلك العنصر الروحي، الذي جعله مخلوقاً متفرّداً متميّزاً على غيره.

الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطيني، ليس هو هذا الهيكل من العظام والدماء واللحم والأعصاب والخلايا والأجهزة، هذه يشارك فيها مع الحيوان، إنّما هو ذلك السّرّ المخبوء داخل هذا الغلاف، الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

نفخة الروح هي التي جعلت الإنسان إنساناً، واستحقّ بها أن تسجد له الملائكة.

هذا هو العنصر الروحي.

الإنسان حيوان عند الغربيّين:

ولذلك ليس الإنسان حيواناً كما يقول الغربيّون من قديم، اليونانيّون من قديم قالوا: الإنسان حيوان ناطق، أي: مفكّر، والاجتماعيّون المحدثون يقولون عنه: حيوان اجتماعيّ، والماركسيّون يقولون: هو حيوان منتج، والتطوريّون يقولون: حيوان متطوّر.

على أيّ حال هو حيوان عند هؤلاء وأولئك، وإن كان حيواناً موصوفاً بصفة من الصفات.

الإنسان مخلوق متفرّد، ليس حيواناً ولا إلٰهاً:

ولكن الإنسان في الإسلام ليس حيواناً، كما أنّه ليس إلٰهاً.

هناك من ألّه الإنسان، وهناك من هبط به إلى درك الحيوانيّة.

الإنسان ليس حيواناً، وإن اشترك مع بعض الحيوانات في الصفات، كما أنّ الحيوان يشترك مع النبات في بعض الصفات، ولكنّنا لا نعرف الحيوان فنقول: هو نبات متطوّر، لا، فالحيوان غير النبات، والإنسان غير الحيوان، والنبات غير الجماد، وإن كان الجميع يشترك في صفات بعضها تتميز عن بعض.

الإنسان مخلوق متفرّد:

ومن الأشياء التي ميّز الله بها الإنسان وكرّمه: أنّه سخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه.

سخّر له كلّ ما في الوجود: العالم العلوي، والعالم السفلي، الشمس والقمر والنجوم، والبحار والأنهار، والجبال والأشجار، كلّ هذا الكون مسخّر لخدمة الإنسان.. لمنفعة الإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ..﴾ [إبراهيم: ٣٣ ـ ٣٤].

الكون مسخر للإنسان، وهذا يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: إنّ الطاقات الكونيّة كلّها مبذولة للإنسان، يستطيع أن يسخّرها لخدمته: الطاقة الشمسيّة.. الطاقة الترابية.. المائيّة.. المعدنيّة.. الهوائية.. الضوئيّة، كلُّها مسخّرة للإنسان.

الفائدة الثانية: إن هذا الكون المسخر للإنسان، لا يجوز أن يعبده الإنسان، كما فعلت شعوب وأمم قديماً وحديثاً، تعبد قوى من الطبيعة هي مسخّرة لها، قلبوا الحقائق، الإنسان المخدوم أصبح خادماً، والمتبوع أصبح تابعاً، والسيد أصبح عبداً، الذي سُخّرت له هذه الأشياء أصبح يعبد هذه الأشياء!.

الإنسان ـ بهذا المفهوم الإسلامي ـ أصبح جديراً أن تكون له حقوق، وأن تكون له مكانة، وأن تكون له كرامة تُرعى، فلا يجوز لأحد مهما يكن قدره، أن

يهين هذا الإنسان، أو يستعبد هذا الإنسان.

حقوق الإنسان منذ المرحلة الجنينيّة:

الإسلام جاء ليحترم الإنسان، وليكرّم الإنسان، من حيث هو إنسان، منذ يولد وإلى أن يموت، بل قبل أن يولد له حقوق تُرى وهو جنين في بطن أمه.

من أجل ذلك حرّم الإسلام الاعتداء على الجنين، حتى الأم التي تحمل هذا الجنين ليس لها أن تتصرف في جنينها بالإجهاض ونحوه، كما ينادي بذلك كثير من الغربيين المعاصرين وتلاميذهم في ديارنا.

لم يُجز الإسلام للأب ـ بحال من الأحوال ـ أن يقتل ابنه أو ابنته من إملاق، أو خشية إملاق، كما كان يفعل العرب في الجاهليّة، وخصوصاً مع البنات، فقد كانوا يتخلّصون منهم بالوأد (دسّها حيّة في التراب) ألا ساء ما يحكمون! ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [الكهف: ٨ ـ ٩].

ولم يُجز الإسلام للأمّ أن تجهض جنينها ولو جاء من حرام.

المرأة الغامديّة المعروفة التي جاءت تطلب من النبي التطهير بإقامة الحدّ عليها، بعد أن ارتكبت الفاحشة، وتقول: يا رسول الله طهّرني، أقم عليّ حدّ الله، فأنا حُبلى من الزنى، فلم يرض النبي ﷺ أن يقيم عليها الحدّ وقال: «فاذهبي حتى تلدي» أي أنه إن كان لنا سبيل عليك، فليس لنا سبيل على ما في بطنك، ما ذنب هذا الكائن الحيّ؟ إنّه مخلوق محترم، لم يجن ولم يذنب، ولا يحمل وزر غيره.

ثمّ تذهب وتأتي به بعد الولادة فيقول: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»[1].

هذا هو الإسلام، يرعى الإنسان منذ هو جنين في بطن أمّه، كما يرعاه

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه، باب: «حدّ الزنا».

بعد موته، حيث يوجب غسله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه قبل توزيع تركته، وحرّم التمثيل بجثته (تشويهاً) ولو في الحرب، كما حرّم كسر عظمه[1]، وأمر ألاّ يذكر الموتى إلاّ بخير، فقد أفضوا إلى ما قدّموا[2].

رعاية الإنسان من حيث هو إنسان:

الإسلام يرعى الإنسان من حيث هو إنسان، في أيّ أرض كان، فلا اعتبار بالأقاليم، من أيّ لون كان، أبيض أو أسود، فالقيمة للإنسان من داخله وليست بلون جلده ووجهه.

يرعى الإنسان بأيّ لغة يتكلّم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢].

يرعى الإنسان من أيّ طبقة كان، من طبقة الأغنياء أم من طبقة الفقراء، من طبقة الخاصّة أم من طبقة العامّة.

بل ليس في الإسلام طبقات، كما كان النّاس في أوربّا قديماً ـ هناك طبقة النبلاء، وطبقة الفرسان، وطبقة رجال الدين... الخ، طبقات تُورث، ولكلّ

---

(١) رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كسر عظم الميت ككسره حيًا» رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير. وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه: (المنتقى: ٢/ ٩١٩ برقم ٢٢٣٥).

(٢) روى البخاري وأحمد من حديث عائشة: «لا تسبّوا الأموات، فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا»، وروى النسائي من حديث عائشة أيضاً: «لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه» رمز له السيوطي بالحسن، وقال الحافظ العراقي: إسناده جيّد (فيض القدير للعلامة المناوي، الحديثان: ٩٧٦٥، ٩٧٨٢)، والمراد بالأموات: المسلمون منهم، فيحرم سبّهم، إلاّ لمصلحة شرعيّة، كسب أهل البدع والفسقة والظلمة للتحذير من الاقتداء بهم، وكجرح الرواة وبيان حالاتهم.

منها حقوق تظلّ ثابتة لا تتغيّر ـ وكما كان النّاس في فارس، وفي الهند قديماً وإلى اليوم، ليس في الإسلام شيء من ذلك.

الناس سواسية، من حيث الكرامة الإنسانيّة الكلّ سواء، حتى اختلاف الدين لا يؤثّر في الكرامة الإنسانيّة العامّة ـ وقد روى البخاريّ عن سهل بن حُنيف وقيس بن سعد: «أن النبي ﷺ مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنّها جنازة يهوديّ [أرادوا أن يعرفوه أنّه ليس بمسلم] فقال: أليست نفساً]»[1]. بلى، ولكلّ نفس في الإسلام حرمة ومكان.

من هنا رعى الإسلام كرامة الإنسان حيّاً وميّتاً:

رعى الإنسان حيّاً: بحفظ ماله، وحفظ دمه، وحفظ عرضه، لا يجوز أن يُهان في حضرته، أو يتكلم عنه بسوء في غيبته.

ورعاه ميتّاً فقال: «لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير»[2] «لا تسبّوا الأموات، فإنّهم أفضوا إلى ما قدّموا»[3].

حقوق الإنسان في الإسلام: فرائض وضروريّات:

جاء الإسلام يحافظ على حقوق الإنسان كلّها، حقوقه المادّية والمعنويّة،

---

(١) رواه البخاري في كتاب: «الجنائز» باب: «من قام لجنازة يهودي»، ومسلم في كتاب: «الجنائز» باب: «القيام للجنازة».

(٢) رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، ورمز له السيوطي بالحسن (الجامع الصغير: ٢/ ٤٢٠٠) وجوّد الحافظ العراقي إسناده، وتتمّته: «إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه». ويُستثنى من النهي ما تمسّ الحاجة إلى ذكره، كجرحهم في شهادتهم وروايتهم، أو تحذير من بدعتهم وفساد طوّيتهم، كما أوضح العلاّمة المناوي (فيض القدير: ٦/ ٣٩٤ برقم ٩٧٦٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، وابن حبان في صحيحه، من حديث عائشة رضي الله عنها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٠٢ برقم ٢١٩٥).

الدينيّة والدنيويّة، العقليّة والجسميّة، واعتبر هذه الحقوق من الضروريّات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، والعرض.

إنّ ما يعدّه الغرب حقوقاً يعدّه الإسلام واجبات وفرائض، وهذا أوثق وأوكد، فحقّ الإنسان يمكنه أن يتنازل عنه، أمّا واجبه المفروض عليه من ربه، فيلزمه أن يراعيه ويقوم عليه ولا يفرّط فيه.

إذا كان التعلّم حقّاً للإنسان في الغرب، فهو واجب على الإنسان المسلم، الذي يعلّمه الإسلام أنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة.

وإذا كان نقد المخطىء أو المنحرف حقّاً للإنسان في الغرب، فهو واجب على الإنسان المسلم، فهو يدخل في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحقّ، كما يدخل في باب النصيحة التي جعلها الرسول الكريم الدين كلّه، لأئمة المسلمين وعامّتهم.

وإذا كانت مقاومة الظلم حقّاً للإنسان في الغرب، فهي واجب على الإنسان المسلم وعلى المجتمع المسلم: «إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»[1].

وإذا كان لجوء المضطهد المظلوم من بلده إلى بلد آخر يأمن فيه حقّاً للإنسان في الغرب، فهو واجب على الإنسان المسلم إذا استطاع إليه سبيلاً، اسمع قول الله تعالى أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، ورواه أحمد أيضاً في مسنده، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه. (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٤٣ برقم ١٣٧٥).

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

يوجب الإسلام على المسلم أن يدافع عن حقه، ولا يرضى بهوان نفسه، ولا يفرّط في كرامته وكرامة أهله، ولا يستسلم للظلم إلاّ من عجز وضعف، فلا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها، وفي الحديث: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يذلّ نفسه؟ قال: يتعرّض للبلاء بما لا يطيق»[1].

بهذا ارتقى الإسلام بحقوق الإنسان وحمل الفرد والمجتمع المحافظة عليها، والمحاماة عنها، وحمل الأمّة المسلمة عبء الدفاع عن المستضعفين المضيّعة حقوقهم، ولو كان ذلك بإعلان الحرب، وشنّ القتال، يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

بين النظرية والتطبيق:

هذا ما جاء به الإسلام، وطبّقه المسلمون تطبيقاً عملياً، ولم يكن مجرّد فلسفة مجرّدة، أو أفكار نظريّة، أو أحلام طوباوية، كجمهوريجة أفلاطون ومدينة الفارابي!.

في المسجد نجد الكلّ سواسية، في الحجّ الجميع سواسية، أذاب الإسلام

---

(١) أخرجه الترمذي وصحّحه، وابن ماجه، من حديث حذيفة، وقال البغوي: هذا حديث حسن غريب، وفي سنده: علي بن زيد وهو ضعيف، والحسن مدلّس وقد عنعن، لكن له شاهد يتقوّى به من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات (شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرناؤوط: ١٣/ ١٧٩ برقم ٣٦٠١) (الإحياء بتخريج العراقي: ١/ ٤٦).

بشعائره كلّ الفوارق التي تميّز النّاس بعضهم عن بعض.

الراشدون من حكام المسلمين لم يفرّقوا بين أحد وأحد، فالنبي ﷺ وضع لهم القاعدة: «... وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

عمر والأمير الغسّاني:

هذا عمر بن الخطّاب يسوّي بين أمير وسوقة، حينما وطىء الأعرابيّ ثوب ذلك الأمير الغسّاني ـ جبلة بن الأيهم ـ وهو يطوف بالكعبة، وقد أسلم حديثاً، فلّما داس على طرف ردائه التفت إليه ذلك الأمير ـ وكان لا يزال به شيء من كبر الجاهليّة ـ فلطمه على وجهه، فذهب الرجل إلى الخليفة عمر يشكو ذلك الأمير، فقال عمر: لطمة بلطمة، أو يعفو ويصفح.

قال: يا أمير المؤمنين: أتسويّ بيني وبينه وأنا ملك وهو سُوقة؟! فقال له: إن الإسلام قد سوّى بينكما، إمّا أن يلطمك كما لطمته، وإمّا أن ترضيه، قال: سأحاول أن أرضيه.

ولكن الرجل بيّت في نفسه أمراً وفرّ بليل، وخرج من المدينة إلى بلاد أخرى مرتداً، والعياذ بالله، آثر أن يبقى على عنجهيّته، وإن عاد إلى الكفر، ولم يقبل أن يقتص منه، ولم يبال عمر رضي الله عنه به.

---

(١) متفق على صحّته من حديث عائشة رضي الله عنها، ونصه كاملاً: أنّ قريشاً أهّمهم شأن المرأة المخزوميّة التي سرقت، فقالوا: من يكّلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلاّ أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ، فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حدّ من حدود الله» ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله او أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (شرح السنة للبغوي: ١٠/٣٢٨ برقم ٢٦٠٣).

بعض الناس يقول: ألم يكن من الأولى أن يتساهل عمر في هذه القضية ونكسب هذا الأمير؟ لا، خسارة شخص ولا خسارة مبدأ، ليذهب إلى الجحيم، يعوّض الله الإسلام غيره آلافاً وآلافاً، ولكن مبدأ المساواة ـ وأن لكلّ إنسان أن يطالب بحقّه إذا ظُلم ـ أعظم من ذلك الأمير الذي ارتدّ وكفر.

متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟:

وكلّنا يعرف تلك القصّة، قصّة عمر مع عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب ذلك القبطيّ المصريّ بغير حقّ، وذهب الرجل وابنه من مصر إلى المدينة ـ كم عانى وكم تعب حتى وصل إلى هناك؟! ـ وشكا عمرو وابنه إلى عمر.

وأحضر عمر عمرواً وابنه، وقال للرجل: اضرب ابن الأكرمين ـ لأنّ ابن عمرو بن العاص كان يقول لابن القبطي وهو يضربه: أنا ابن الأكرمين! ـ ثم قال له: أدرها على صلعة عمرو، فما ضربك ابنه إلاّ بسلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين: إنّما اضرب من ضربني، ثمّ التفت عمر إلى عمرو وقال له كلمته التاريخيّة التي تحفظها ويحفظها التاريخ: متى استعبدتم الناس يا عمرو، وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا؟!.

كلمة عمر ـ التي قالها على البديهة ـ أصبحت تفتتح بها مواثيق وإعلانات حقوق الإنسان اليوم: إنّ الناس يولدون أحراراً متساويين[1].

العبرة الكبيرة هنا: ما الذي جعل هذا القبطيّ يجوب الفيافي والقفار، راكباً جمله أو دابّته حتى يصل إلى المدينة؟ لقد كان هو ومواطنوه والآلاف من أمثاله في مصر ـ في عهد الرومان المسيحيّين أمثالهم ـ يُضربون ويُهانون ويُحبسون

---

(١) جاء في المادّة (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء» نقلاً عن كتاب (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) للشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

ويُقتلون وتراق الدماء أنهاراً، في عصور سُمّيت: عصور الشهداء، ولم يكن يرفع أحد رأسه.

ما الذي حرّك هذا الرجل حتى قطع هذه المسافة الطويلة؟.

لا شيء إلاّ اعتقاده أنّ هذا دين جديد، جاء ينصف الناس، ويقيم عدل الله بينهم، ولا يقيم فوارق بين العباد، اعتقاده هذا هوّن عليه المتاعب وبُعْد الشقّة، فلم يعبأ بالمعاناة ووعثاء السفر، وفراق الأهل والوطن، من أجل أن يأخذ حقّه.

هذا ما جاء به الإِسلام، وهو غرة في جبين الإنسانيّة.

الحضارة الغربيّة وحقوق الإنسان:

الحضارة الغربيّة اليوم تُعلن حقوق الإنسان، وهي ـ حقيقة ـ تُعنى بحقوق الإنسان في ديارها، الإنسان هناك محترم أيّ احترام له حقوق، له كرامة، كلّ إنسان يعرف حقوقه التي ينصّ عليها الدستور، ويحافظ عليها القانون، وتقوم على رعايتها السلطة.

في داخل بلادهم كلّ الحقوق مرعيّة ـ فيما عدا قضيّة التمييز العنصري، واحتقار الملوّنين ـ ولكنّهم إذا خرجوا من تلك البلاد لا يراعون لأحد حقّاً.

في هذه الأربعين سنة التي مضت على إعلان حقوق الإنسان، كم انتهكت حرمات، كم سُفكت دماء؟ كم انتهبت أموال؟ كم شُرّد أناس من أوطانهم وخصوصاً في أوطاننا نحن المسلمين؟ ما أكثر الذين أوذوا وشُرّدوا، شُرّد شعب بكامله من أرضه في فلسطين، شُرّدت شعوب إسلاميّة من أوطانها.

هناك من المسلمين ملايين وعشرات الملايين مشرّدين في أنحاء العالم.. من بورما، من أريتريا، من الصومال.. من أقطار شتّى يحكمها طغاة مستبدّون ظالمون.

الغرب وراء هذه المظالم كلّها:

أليس هؤلاء هم الذين يؤيدون غارات ما يسمّى (إسرائيل) على لبنان إلى العهد الأخير؟ ومظالم تلك الدولة المغتصبة مع أطفال الحجارة، مع أولئك الأشبال الأطهار؟.

أليس هؤلاء وراء كلّ مظلمة؟.

نحن المسلمون أصبحت دماؤنا أرخص الدماء في الأرض، وأصبحت أرضونا نهباً لكل طامع.

حقوقنا أين هي؟.

الإنسان في عصر حقوق الإنسان أصبح في كثير من البلاد مضيّعا.

لقد أعلنت منظمة العفو الدوليّة أنّ حوالي ثلث العالم يعيشون مضطهدين من حكومات ظالمة لا ترعى حقوقهم، وهذه مصيبة كبرى.

أناس يُحكمون بغير إرادتهم، أناس سُلِّطوا على أناس لا يستطيعون التخلّص منهم، هذه هي مصيبة العالم الذي يدَّعي حقوق الإنسان.

كم في السجون من أبرياء؟ كم هناك من أناس تُمزّق أجسادهم السياط؟ كم هناك من أناس يُعانون من مظالم الفراعنة الجدد، في عصر يُحتفل فيه بحقوق الإنسان؟.

ونحن المسلمين كم نُعاني ونُعاني من جرّاء هذه المظالم؟ ولا يمكن أن ننال حقوقنا إلاّ أن ننتزعها من براثن الوحوش، من أيدي أولئك المغتصبين.

لا يستطيع أحد أن ينال حقّه إلاّ بالكفاح، إلاّ بالجهاد، فما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة، ولا يفلّ الحديد إلاّ الحديد.

في عصر حقوق الإنسان نبكي نحن المسلمين على ديار وأوطان هنا وهناك مضيّعة، وعلى إخوة لنا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، كما كانوا يعلموننا قديماً في علم الإنشاء.

نبكي على إخوة لنا هنا وهناك، يطالبون بحقّهم ولا يجدون نصيراً.

لو أنّ إنساناً غربيّاً أصاب ظفره شيء، أو اختطف، أو سُرق، لقامت الدنيا ولم تقعد، ولكنّ الملايين منّا نحن العرب والمسلمين يُعانون ما يُعانون ولا يكاد يلتفت إليهم أحد.

أهذا هو عالم حقوق الإنسان؟.

أين حقوق الإنسان أيّها الناس في عصر يأكل الأقوياء فيه الضعفاء.. غابة يفترس القويّ فيها الضعيف.. بحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير؟.

لا مكان إلاّ لمن يأخذ حقّه بيده، فلنتقوّ أنفسنا، ولنعدّ العدّة، ولنحرص على أن نكون نحن المسلمين في ديارنا مثلاً للحقوق التي يجب أن تُرعى.

كم في ديار المسلمين من حقوق تُهضم بأيدي المسلمين؟!.

لا يجوز أن نعيب على الغرب أنّه يضيّع حقوقنا، ونحن في ديارنا مضيعوا الحقوق، يأكلها مواطنون لنا، كل إنسان يقول: نفسي، نفسي، يقول: لي.. لي، ولا يقول ـ يوماً ما ـ عليّ.

هذه هي الآفة، وهذه هي الكارثة، ولا نجاة لنا إلاّ بالعودة إلى الإسلام، التزام بالحقوق، والتزام بالواجبات، كما شرعها الله، وكما جاء بها محمد رسول الله ﷺ.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

* * *

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

فلنذكر ضعف الإنسان:

إذا كنّا تحدثنا عن حقوق الإنسان، فينبغي أيضاً أن نذكر هذه الأيّام ضعف الإنسان.. الإنسان الذي طغى في هذا العصر، وظنّ أنّه سيطر على كل شيء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس: ٢٤]، ثم تأتي الأحداث وراء الأحداث، لتعلّم الإنسان أنّه مخلوق ضعيف: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

أيّها الإنسان ما أنت؟ أنت حفنة من التراب، تتغذّى ممّا يخرج من التراب، ثمّ تواري أخيراً في التراب، ترابٌ يمشي على تراب.

أيّها الإنسان المتألّه ما أنت؟ لو أنّ السماء تمسك أمطارها عنك هل تستطيع أن تفعل شيئاً؟ ماذا تستطيع إذا لم تنزل عليك قطرات الماء؟ كان الناس قديماً يقولون: النيل عندنا في مصر يُغنينا عن أمطار السماء، فلمّا شحّت الأمطار في أفريقيا لم يستطع الناس أن يفعلوا شيئاً، ثمّ لمّا زادت الأمطار أصبح الناس يشكون الفيضان.. الفيضان يغرق ويدمّر في السودان.. في باكستان.. في بنغلادش.

ماذا تصنع أنت أيّها الإنسان؟.

ثمّ انظر أخيراً إلى ضعف الإنسان السوفيتي الذي يملك القدرات العلميّة، والإمكانات التكنولوجيّة، والصواريخ والأقمار الصناعيّة، والسفن الفضائيّة، رغم هذا كلّه، ماذا صنع السوفييت أمام هزّة أرضيّة.. زلزلة استمّرت ثواني معدودات؟! فإذا بها تجعل عالي المدن سافلها! ثمان وأربعون قرية دُمّرت على من فيها!.

أين العلم؟ أين الصواريخ؟ أين الأقمار؟ أين سفن الفضاء؟ أين المخزونات النوويّة؟ أين. . . أين؟.

الإنسان ضعيف أمام هذا كلّه.

اعتبر أيّها الإنسان، واذكر بهذا أن هناك زلزلة أكبر من هذه الزلزلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

اللّهمّ نبّهنا من سكرتنا، وأيقظنا من غفلتنا، وتب علينا توبة نصوحاً.

اللهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللّهم ارع أوطاننا وديارنا.

اللّهم ردّنا إلى الإسلام ردّاً جميلاً.

اللّهَم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، . وأهلينا وأموالنا.

اللّهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين، وفي أفغانستان، وفي أرتيريا، وفي الفلبين، وفي كلّ مكان من أرض الإسلام.

اللهم أيّد إخواننا المضطهدين والممتحنين، اللهم أفكك بقوتك أسرهم، وأجبر برحمتك كسرهم، وتولّ بعنايتك أمرهم.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم ردّ عنّا كيدهم، وغلّ حدّهم،

وأدل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عـــبـــاد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

obeikandl.com